مع مرور الأيام

أوراق منسوخة عن بعضها بعضا، وحروف تتكرر في الجملة ذاتها كثيرا...

قبل عشرين سنة

كانت الآمال متعلقة في رقاب الأبناء، والوالد يرسم ملامح التباهي على وجهه المجعد مجرد ما عرف أن ابنه سيسافر ليعود بشهادة كبيرة، والتنافس بين أبناء العشيرة قد وصل لأقصى درجاته، لذلك سافر وليد اليوم للدراسة وقد كان يتمنى أن يجد هناك شخصا من دولته لعلهما يتقاسما هموم الغربة ويقضيا على وحش الوحدة بضربة ثنائية أساسها الصداقة، وبالفعل لم تخب آمال وليد، فقد التقى مع مواطنه بسام الذي سافر اليوم ليدرس التخصص ذاته، فأبو بسام يحمل في عقله أفكارا مشابهة لأفكار أبي وليد، ألم يرضعا من تربة الوطن ذاته؟!

تجسدت بينهما علاقات متينة جعلتهما يحسدان عليها من قبل باقي الزملاء، فرفقتهما باقية ما بقيا، لذلك تعاهدا ألا ينقطعا عن بعضهما حتى لو انهيا دراستهما وعادا إلى أرض الوطن مع العلم أن كل واحد منهما يقطن في مدينة تبعد عن الأخرى مئة كم.

لكل بداية نهاية، هذا ما تعلمناه من مرور الأيام، لكن هل جميع النهايات سعيدة؟...

قبل خمسة عشر سنة

عمت الفرحة أرجاء المدينتين فقد عادا للوطن ذاته، وحملا على عاتقهما أحلاما كثيرة تعجز الجبال على حملها، فاحتضنت كل مدينة ابنها وتباهى كل والد بابنه، فلطالما قد انتظرا هذه الفرحة، ولطالما قد اقسما على الله أن يقيمان الولائم إذا ما تكحلت عيونهما برؤية ابنهما، وهاقد تحققت الأمنية، فافلحوا يا بشر على ما قسم الله.

كان وليد يجوب فيافي قريته لعله يحظى بفرصة عمل، وقد كانت نفسه مليئة بالاشتياق لصديقه بسام، وقد كان يدعو ربه أن يوفق

صديقه في عمل ما يعيله على بناء مستقبله، بينما كان بسام قد أحضر واسطة عملاقة جوفاء مكنته من الحصول على العمل، فربما انشغاله في عمله الجديد جعله لا يبالي باستفسارات صديقه وليد عنه، وربما قد تلاشى وعده تحت ضغط العمل، فقد أعطى وليد عنوانه لصديقه بسام دون أن يأخذ عنوان سكن بسام، فلم يهتم بالأمر كونه كان يعتقد أن صديقه سيزوره في أقرب فرصة وبعد ذلك يتبادلان الزيارات، كان القلق يساور وليد بين الحين والآخر حتى قرر أن يذهب لمدينة بسام وحاول أن يستفسر عنه لكن مدير أعمال صديقه قال أنه سافر للخارج لأداء بعض الأعمال.

حينئذ قرر وليد أن يسافر هو الآخر لاستكمال دراسته ويحصل على الشهادات العليا لعلها تمكنه أن يكون أكاديميا في إحدى الجامعات، وبالفعل قد سافر وليد وشوقه لصديقه لم ينقرض بعد!

لن تستمر الحياة طالما كان اليأس يرافق أيامها، لذا لا بد من القضاء عليه كي تستمر الحياة...

قبل سبع سنوات

ما يزال بسام يتطور يوما تلو الآخر في عمله، ويحقق نجاحا لا نظير له، بينما قد حصل وليد على شهاداته العليا وعاد لوطنه ليستقر في إحدى الجامعات المحلية، فقد أصبح أكاديميا مشهورا، محبا لعمله محبوبا من قبل طلبته، وقد كان في ذلك الوقت يستذكر ذكرياته مع رفيق دراسته بسام، وكم تمنى أن يلتقي به، وكم تمنى أن يعرف إن كان بسام يفكر به أم أنه قد نسيه وانتهى الأمر، لقد كان يسأل عن الأمر دون أن يعرف أن صديقه قد نسيه بالفعل.

قبل أربع سنوات

تخرجت من الثانوية العامة وسط إلحاح شديد من أهلي للتخرج بمعدل مرتفع لعلي أتمكن من دراسة التخصص المطلوب، وها قد تمكنت من دخول الجامعة بالتخصص المرغوب، فصفقوا يا أهلي لأحلامكم فقد تحققت. دخلت الجامعة وقد كان كل همي أن أدرس المساقات التي يدرسها " الدكتور وليد" فصيته قد سبقه، وعلمه قد

أنطق جدران الجامعه، وحسن معاملته أوشك أن يصبح مساقا يدرس في الجامعة، وبالفعل قد التحقت في احد المساقات التي يدرسها، وحينما نظرت إليه ولأسلوب تعامله معنا، شعرت أن المديح الذي سمعته عنه قد ظلمه، فهو يحتاج لأكثر من ذلك بكثير من معسول الكلام، وفي مرة اضطررت أن أدخل المحاضرة متأخرا وحينما سألني عن السبب قلت له أنني أقطع مسافة طويلة حتى أتمكن من الوصل للجامعة، ولما سألني عن مكان سكني أجبته به، فإذا بملامح وجهه قد توزعت على القطبين المتجمدين، وطلب مني أن أعيد له اسم مكان سكني، فلبيت طلبه بعدما تلهف أن يتكلم معي بعد المحاضرة. فاتجهت نحو مقعدي وابتسامة الفخر لا تفارقني وسط غيظ زملائي، فربما أنهم سيحسدونني لأن " الدكتور وليد" طلب مقابلتي.

انتظرت انتهاء المحاضرة بفارغ الصبر، لأعلم ما يريده الدكتور وليد مني لذلك أسرعت نحو مكتبه وانتظرته قليلا، فابتسم لي عن بعد ومد يده لتصافحني قبل أن يصلني، فتعجبت كثيرا لاهتمامه المفاجئ بي، فقلت له:

- تفضل... هل من خدمة أقدمها لك؟

ابتسم الدكتور بعدما لاحظ بوادر الفضول وهي تترعرع في عيني، فقال ضاحكا

- على رسلك يا بني، الأمر بسيط!

دخلت مكتبه، وتناولت قطعة من الحلوى، وأجبته على استفساره، ثم هممت للالتحاق بما تبقى من محاضراتي.

في ذلك الوقت كان بسام يتألق في عمله، لدرجة أنه اهتم في عمله أكثر مما يهتم بزوجته وأطفاله، إلا أن هذا الأمر لم يزعج زوجته بتاتا، كون زوجها يجني المال الكثير ويحقق مجمل رغباتها التي لا تنضب، فهي ما تزال تراه تلك الآله التي تسك النقود، ولا تبالي بالعلاقات الانسانية أو الاجتماعات الترفيهية التي تشعرنا بانسانيتنا وانتمائنا لبشريتنا.

عدت إلى البيت، وطلبت من أبي أن يحضر لي رقم هاتف بسام، فهذا ما طلبه مني الدكتور وليد، فقد استبشر خيرا حينما علم مكان سكني والذي يجمعني بصديق عمره بسام، وسألني إن كنت أعرفه أم لا؟! فأخبرته أن أخاه صديق أبي منذ زمن.

بعد أن تحدث الدكتور وليد مع صديقه بسام في الهاتف، تيقن أن صديقه بسام قد تناساه للأبد، فقد تظاهر بعدم معرفته للدكتور وليد، رغم المزيد من التوضيح والذكريات التي أخرجها الدكتور وليد من خزانة الماضي، إلا أن بسام أصر على عدم معرفته للمتصل حتى لو لم يبق في الخزانة إلا خشبها!

تعجبت وقتئذ من تصرف بسام، فما الذي يدفعه لهذا التصرف، وما الذي يضيره لو تعرف على صديقه والتقيا من جديد، إلا أن أبي وضح لي السبب، فربما أن بسام لا يريد أن يضيع وقته في مجاملات مزيفة من وجهة نظره في استقبال الضيوف والترحيب بهم وانفاق النقود مقابل ذلك في سبيل استرجاع الذكريات، فالذكريات لا تطعم خبزا، وبالتأكيد زوجته هي وراء كل ذلك!

الحياة لا تقف عند محطة واحدة، فربما تنقلنا لمحطة جديدة تغير واقعنا وتقلب أمورنا.

قبل أيام

تخرجت من الجامعة بعد طول عناء، ولملمت ذكرياتي كي استرجعها وقت الرخاء، وطيف الدكتور وليد سيبقى ملازما لي كي اتخذه قدوة في حياتي ما حييت، ودعواتي له بالخير سترطب لساني على الدوام، ولعل الله قد استجاب إحداها ليصدر مثل هذا القرار.

بعد التشكيلات الوزارية الأخيرة، صدر قرارا بتعيين الدكتور وليد وزيرا للتعليم العالي، وبهذا سينقل الدكتور وليد خبرته وحسن إدارته لكل جامعات الوطن، فكان هذا الخبر بمثابة فرحة عظيمة لكل محبي الدكتور وليد، لكن بالوقت نفسه قد صعق هذا الخبر أذني بسام كما يصعق الرعد أذن السماء، فعض شفته ندما، وتمنى لو أنه لم ينكر معرفته لصديقه، وخصوصا أن لديه ارتباطاته الواسعة بوزارة التعليم

العالي، وهنا بدأت أنياب المصلحة بالظهور، ومخالب الأنانية تشبثت بحبال الجشع قدر الإمكان، كما أصبح يتخبط مكانه كما لو أصابه مس، فهدأت زوجته من حاله، وأقنعته أن يكلم صديقه من جديد.

نبتت علامات التعجب في وجه بسام بعدما ارتوى من حديث زوجته المبهم، فكيف له أن يهاتف الدكتور وليد بعد كل ما حصل، إلا ان زوجته كبرت في عينه حجم المصلحة وزخرفتها مبررة ذلك في قولها

- الأمر بسيط، تستطيع أن تقول لصديقك أنك لم تعرفه من صوته، ولم تسعفك الذاكرة لاستذكار ما مضى، وانك عرفته حينما رأيته على التلفاز.

راقت الفكرة بسام وبالفعل قد اتصل مع الوزير وليد وليس هذا فحسب، بل حدد الوزير موعداً لمقابلة صديق دراسته، فطبيته قد مسحت آثار الشك من دماغه.

قد يمسح أصحاب المصالح كل مهام الحياة من جدول أعمالهم لمجرد استغلال المصلحة

اليوم

انطلق بسام بسيارته نحو مكتب الوزير وليد لمقابلته واسترجاع ذكريات الماضي، وألصق على لسانه عبارات الثناء والمديح ليقدمها للوزير، لعله يجدد تلك المكانة القديمة التي احتلها من قلبه.

لم يبق سوى أمتار معدودة حتى يصل بسام لمكتب صديقه الوزير إلا أن موكب السيارات الضخم منعه من ذلك، فنزل من سيارته محاولاً أن يستفسر عن الأمر، وبعد برهة من الانتظار وجد رجلاً ينتظر مرور السيارات لعبور الشارع فبادره بسام بالحديث قائلا بتهكم:

- ما الأمر... لم كل هذه السيارات أمام مكتب الوزير

ارتسمت علامات الحزن على وجه الرجل وقال بأسى

- مسكين هذا الوزير، ما إن أصبح وزيراً حتى تفقده الله في رحمته.

سيطر العجب على وجه بسام وقال بغضب

- هل تقصد أن الوزير قد مات.

- نعم. نسأل الله له الرحمة

ماذا ينتظر الواجب من أصحاب المصالح سوى الأنانية وسوء الخلق.

بعد قليل

أردف الرجل حديثه مخاطباً بسام

- ربما أنك تعرف الوزير شخصيا، ولا بد انك ستلتحق بموكب جنازته، لذا أرجو أن تأخذني معك إن لم يكن عندك أي مانع.

حملق بسام بالرجل بازدراء، وركب سيارته دون أن يجيب الرجل بأي كلمة ثم انطلق في الاتجاه المعاكس للجنازة قاصداً بيته حيث زوجته.

النهاية